

فِي اللَّيْلِ الْمَوْحِشِ الْعَمِ كَانُوا يَتَمَتَّسُونَ خَلْفَ الْأَكْيَاسِ الرَّمْلِيَّةِ عَلَى الشَّاطِئِ، وَوَنَيْسُهُمُ الْوَحِيدُ مُوسِيقًا تَبِعَتْهَا الرِّيحُ الْخَرِيفِيَّةُ عَبْرَ  
 أَمْوَاجِ الْبَحْرِ. وَهُنَاكَ بَعِيدًا بَعِيدًا تَنْتَصِبُ عَلَى الرَّمَالِ الْبُيُوتُ السَّعَفِيَّةُ وَالطَّيْنِيَّةُ - وَآخِرُ أَطْلَالِهَا هَذَا الْجِدَارُ - تَخْتَرْنُ صَدَى الْبُكَاءِ  
 وَالْعَوِيلِ عَلَى الْقَتْلِ وَالْجَرْحِ بِتِلْكَ النَّيرانِ، يَرْمِيهَا ذَلِكَ الشَّيْءُ الْمُخِيفُ الرَّابِضُ فِي كَيْدِ الْبَحْرِ. الْحَرَائِقُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَمَعَ النَّيرانِ  
 كَانَ الْوَحْشُ يُرْسِلُ جَرَائِمَهُ بَيْنَ الْحَيْنِ وَالْآخِرِ، عَبْرَ قَوَارِبٍ تَجْدِيفٍ تَتَسَلَّلُ إِلَى الشَّاطِئِ، وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ وَصَلَتْ لَاهِنًا بِالرَّاحَةِ بَعْدَ  
 سَهْرِ اللَّيَالِي فِي الْحَفْرِ الرَّطْبَةِ. أَبَدَتْ الْكِلَابُ اسْتِبَاءَهَا لِلْأَعْمَالِ الْقَذَرَةِ، وَهِيَ تَجْرِي عَبْرَ الْأَزَقَّةِ بِاتِّجَاهِ ذَلِكَ الْوَحْشِ. أَحْسَسْتُ بِالدَّمِ  
 يَنْصَاعِدُ فِي عُرُوقِي. خَطَوْتُ بِسُرْعَةٍ فِي الرُّقَاقِ الرَّطْبِ الْمُؤَدِّي إِلَى الْمَنْزِلِ السَّعْفِيِّ ذِي الْحُضْنِ الدَّافِئِ، أَسْرَعْتُ إِذْ مَرَّ أَحَدُ الْقَوْمِ  
 وَهُوَ يُرَدِّدُ (لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ). وَعِنْدَمَا وَصَلْتُ إِلَى نِهَايَةِ الرُّقَاقِ. وَقَفْتُ عِنْدَيْدٍ وَلَمْ أَجْرُؤْ عَلَى السُّؤَالِ فَقَدْ كَانَ الْجَوَابُ مَائِلًا  
 أَمَامِي. تَسَابَقَتْ أَيْدِي الْقَوْمِ تُرِبْتُ عَلَى كَتِفِي وَتَوَاسَيْنِي (أَحْسَنَ اللَّهُ عَزَاكَ يَا بُو عَبْدِ اللَّهِ)، أَمْسَكْتُ أَحَدَ الرِّجَالِ بِكِلْتَا يَدَيْ وَهَزَزْتُهُ  
 بِعُنْفٍ: لَزِمِ الرَّجُلَ الصَّمْتَ مُرْتَمِيًا عَلَى صَدْرِي. انْفَجَرَ بِأَكْبَا وَهُوَ يُرَدِّدُ (أَحْسَنَ اللَّهُ عَزَاكَ فِيهِمْ). إِغْرُورَفْتُ عَيْنَايَ وَاحْتَضَنْتُهُ بِكُلِّ  
 قُوَّتِي وَضَغَطْتُ بِجِسْمِهِ عَلَى صَدْرِي. وَإِذَا بِنَا نَشَاهِدُ تَصَاعُدَ اللَّهَبِ قَرِيبًا مِنْ دَارِكٍ. وَإِذَا بِالنَّارِ قَدْ أَتَتْ عَلَى الْخِيَمَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا  
 الْأَوْلَادُ، اقْتَرَبْتُ مِنَ الْجُثِّ الْمُلْقَاةِ عَلَى بَقَايَا السَّعْفِ الَّذِي تَمَّ انْقَاذُهُ، نَهَضْتُ وَاقِفًا عَلَى قَدَمِي الْمُرْتَجِفَتَيْنِ خَطَوْتُ نَحْوَ الرُّكَامِ.  
 تَنَاوَلْتُ بِيَدَي حَفْنَةً مِنَ الرَّمَادِ السَّاخِنِ. وَالذِّكْرِيَّاتُ الَّتِي أُحْرِقَتْ، بِصَمْتٍ بِكْوَا، انْشَغَلْنَا فِي إِعْدَادِ الْجُثِّ لِذَفْنِهَا فِي الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ  
 بَعْدَ صَلَاةِ الْغَائِبِ، انْفَرَدْتُ بَعْدَهَا عَلَى كَوْمَةٍ مِنَ الرَّمَالِ عَلَى بَعْدِ خَطَوَاتٍ مِنَ الشَّاطِئِ. جَرَفَنِي بُكَاءٌ حَادٌّ. زَرَعْتُ وَجْهِي فِي حُضْنِ  
 الرَّمَالِ. انْدَفَعْتُ بِقُوَّةٍ نَحْوَ الْخَوْرِ، صَلْتُ الشَّاطِئِ. لَفَحْتَنِي نَسَمَاتُ الْخَرِيفِ الْآتِيَةِ مِنَ الْبَرَارِيِّ وَأَنَا أَنْزِلُقُ إِلَى الْمَاءِ لِأَجْذِبَ  
 الشَّاحُوفَ، السِّكِينُ هُنَاكَ فِي السَّلَّةِ، - أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مَاذَا جَرَى؟ تَنَاوَلْتُ طَرَفَ الْقُمَاشِ الَّذِي كَانَ يَلْتَفِفُ بِهِ مُبَارَكٌ، سِيرَحُلُ اللَّيْلَةِ.  
 سَكَتَ مُبَارَكٌ وَلَمْ يَرُدَّ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ، سَحَبْتُ الْمِرْسَاةَ، ثَبَّتُ الْمَجَادِيفَ. - وَلَكِنْ يَا بُو عَبْدِ اللَّهِ. - أَرْجُوكَ يَا مُبَارَكُ. اسْتَمَرَّ فِي  
 التَّجْدِيفِ وَالزَّمِ الصَّمْتَ حَتَّى نَصَلَ. بَدَأْنَا نَضْرِبُ تِلْكَ الْمَجَادِيفَ بِخَفَّةٍ وَتَنَاسُقٍ وَالشَّاحُوفُ يَمُخِّرُ عِبَابَ الْمِيَاهِ بِأَنْسِيَابٍ خَرَجْنَا إِلَى  
 عَرْضِ الْبَحْرِ، وَاسْتَمَرَّ الشَّاحُوفُ بِالْانْزِلَاقِ وَسَطَ الصَّمْتِ حَتَّى اقْتَرَبْنَا. حَدَّثَنِي عَنْ أَيِّ شَيْءٍ. لَا تَنْتَظِرْ يَا مُبَارَكُ. وَلَا تُخْبِرْ أَحَدًا،  
 الْإِنْتِظَارُ لَا يُطَاقُ. لَيْسَتْ سُؤَالُ مُبَارَكٍ الَّذِي يَسْتَخْدِمُهُ فِي الْغَوْصِ، تَعَلَّقْتُ بِهِ. لَكِنْ سُرْعَانِ مَا اسْتَدْرَكْتُ إِحْسَاسِي أَنَّ (مُبَارَكُ)  
 يُرَاقِبُنِي. بَعْدَ أَنْ إِقْتَنَصْتُ فُرْصَةً نَوْمِهِمْ جَمِيعًا. فَحَصْتُ كُلَّ شَيْءٍ. وَسَقَطَ مُتَكِنًا عَلَى ذِرَاعِي. صَوْرُ الْمَآسِي وَالْحَرَائِقِ وَالْأَطْفَالِ  
 الْيَتَامَى وَالْمَرَاجِيعِ الَّتِي شُنِقَتْ عَلَيْهَا الْأَغَانِي. وَحَبَسْتُ أَنْفَاسَهُ بِمَخْدَةٍ قُطْنِيَّةٍ مَنَعًا لِلضَّوْضَاءِ وَالصَّرَاحِ. شَعَرَ الْحَارِسُ بِالْأَمْرِ  
 وَشَاهَدْتُهُ يَقْتَرِبُ مِنْ خِلَالِ الْأَفُقِ الْبَعِيدِ. أَسْرَعْتُ بِاتِّجَاهِ الْبَابِ مُتَعَثِّرًا بِأَكْوَامِ الْجِبَالِ. وَالْمُ الْجُرْحُ حَتَّى ارْتَطَمْتُ بِالشَّاطِئِ. اخْتَلَطَ  
 فِيهَا الْبُكَاءُ بِالضَّحِكِ. حَمَلْتُ بِالْوُجُوهِ الْمُحِيطَةِ. وَإِذَا بِمُبَارَكٍ وَاقِفٌ وَالْإِبْتِسَامَةُ تَمَلُّ ثَغْرَهُ، وَدُمُوعُهُ السَّاخِنَةُ تَنْثَالُ عَلَى وَجْهِهِ.  
 امْتَدَّتْ أَيْدِي الْقَوْمِ وَعِبَارَاتُ الْأَسَى تَعْلُو الْأَفْوَاهَ الْمَكْلُومَةِ، حَمَلُونِي إِلَى الْحَيِّ الْحَزِينِ وَالْجُرْحِ يَنْزِفُ بِغَزَاةٍ. وَكَأَنِّي بِالْكَلِمَاتِ  
 الْمَحْفُورَةِ عَلَى الْجِدَارِ الْقَدِيمِ تَتَحَرَّكُ، وَتَنْطِقُ لِكُلِّ الْأَجْيَالِ أَنَّ هَذَا الْجِدَارَ يَعْرِفُ حِكَايَةَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ. وَتَحْتَهُ تَمَّ غَسْلُ جُثَّةِ أَبِي عَبْدِ  
 اللَّهِ. وَتَحْتَهُ أَيْضًا قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ لِلرِّجَالِ (أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّ الْوَحْشَ لَا بُدَّ أَنْ يَرَحَلَ). وَبَكَيْتُ عَلَى صَدْرِهِ كَثِيرًا عِنْدَمَا شَاهَدْتُ  
 الْوَحْشَ يَرَحُلُ.